DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135

ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

أسرار التعبير القرآني عن دعاء الخليل لمكة المكرمة

د. صبحي إبراهيم عفيفي المليجي
كلية التربية، جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز، المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: s.elmelegy@psau.edu.sa

الملخص

هذا المشروع يقصد إلى دراسة المواضع التي دعا فيها الخليل إبراهيم عليه السلام لمكة المكرمة، والتي سميت في الذكر الحكيم بمكة وبكة وأم القرى والبلد الأمين، بهدف معرفة المقاصد التي بسببها ابتهل إلى الله تعالى، وخَصّ هذا المكان دون غيره بالدعاء والتضرع، ولأجل معرفة الأساليب البلاغية التي استعملها للتعبير عن هذه المقاصد، وليتم استنباط القيم التربوية والمعاني الإيمانية التي تزخر بها ابتهالات الخليل وضراعاته لأم القرى، وأيضا لتزويد مكتبة البلاغة العربية بعمل علمي يخص هذه الآيات بالدرس البلاغي، والتحليل الأسلوبي، الكاشف عن الخصائص البلاغية، والسمات الأسلوبية، والقيم التربوية لدعاء الخليل فيها.

منتهجا لأجل تحقيق ذلك المنهجَ التحليلي، القائم على التحليل والتأويل والمقارنة بين ما جاء عليه البيان القرآني وبين غيره من الأساليب التي يمكن أن تُؤَدَّى بها هذه المعاني، مثبتا في الخاتمة النتائج التي استخلصها، والتوصيات التي يدعو إليها.

الكلمات المفتاحية: دعاء، الخليل، مكة، الذرية.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810

مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

Secrets of the Qur'anic Expression of Hebron's Supplication for Mecca

Dr. Subhi Ibrahim Afifi Al-Meligy
College of Education, Prince Sattam bin Abdulaziz University, Kingdom of Saudi Arabia
Email: s.elmelegy@psau.edu.sa

ABSTRACT

This project aims to study the places in which Hebron Abraham, peace be upon him, called to Mecca, which was called in the Holy Quran Mecca, Mecca, Umm al-Qura, and the Faithful Country, with the aim of knowing the purposes due to which he supplicated to God Almighty, and singled out this place alone for supplication and supplication, and in order to know the rhetorical methods. Which he used to express these purposes, and to extract the educational values and meanings of faith that abound in Hebron's supplications and supplications to Umm al-Qura, and also to provide the Library of Arabic Rhetoric with scientific work related to these verses with rhetorical lessons and stylistic analysis, revealing the rhetorical characteristics, stylistic features, and educational values of Hebron's supplication. In which.

In order to achieve this, he adopted the analytical approach, based on analysis, interpretation, and comparison between what was stated in the Qur'anic statement and other methods by which these meanings can be conveyed, confirming in the conclusion the results he drew, and the recommendations he calls for.

Keywords: supplication, Hebron, Mecca, offspring.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

المقدمة: يعد خليلُ الرحمن إبراهيم- عليه السلام- هو الذي وضع حجر الأساس لمكة المكرمة، أم القرى، وحاضنة بيت الله العتيق، وقد دعا لها ولساكنيها بأدعية تدل على حبه الجارف للمكان، وحبه الشديد لساكنيه من أبنائه وذريته، وإشفاقه البالغ عليهم، وقد حكى القرآن الكريم هذا الدعاء في موضعين: الأول- في ثلاث آيات من سورة البقرة، والآخر- في سبع آيات من سورة إبراهيم. وهذا المشروع يعتزم الوقوف على أسرار هذا الدعاء، وبيان أوجه الإعجاز البلاغي فيه، كما أنه يسعى جاهدا لاستنباط القيم التربوية، والمعاني الإيمانية التي تزخر بها ضراعات خليل الرحمن للبلد الحرام.

مشكلة البحث: أنه يسعى للإجابة عن مجموعة من الأسئلة: أولها- لماذا عبر الخليل عن مكة بكلمة "بلد" في سورة البقرة نكرة، بينما عبر عنها في سورة إبراهيم بكلمة "البلد" معرفة؟، ثانيها- لماذا لم يسمها بالاسم الذي عُرفت به، وهو مكة، واكتفى بالإشارة إليها في الموضعين باسم الإشارة "هذا"؟، ثالثها- لماذا كان دعاؤه لها بالأمن مقدما على غيره من الأدعية؟، رابعها- ما دلالة دعائه لأهلها في سورة "البقرة" بأن يرزقوا من الثمرات؟ بينما دعا لهم في سورة "إبراهيم" بأن يجنبهم الله عبادة الأصنام؟ خامسها- ما الغاية من دعاء إبراهيم لساكني مكة؟ ولماذا عبر عنهم بلفظ "أهله"؟ ... وغير ذلك من الأسئلة التي تمثل مشكلة، ويسعى البحث للإجابة عنها.

الأهداف: يقصد هذا المشروع إلى تحقيق الأهداف التالية: الأول- معرفة المقاصد التي كانت وراء دعاء الخليل لمكة في الموضعين. الثاني- الوقوف على الأساليب التي عبر بها لتحقيق هذه المقاصد. الثالث- المقارنة بين ما عبر به الخليل وبين غيره مما يمكن أن يقوم مقامه في أداء المعنى. الرابع- استنباط القيم التربوية والمعاني الإيمانية والسمات الأخلاقية التي يزخر بها دعاء الخليل لمكة المكرمة. الخامس- الإجابة عن الأسئلة التي تمثل مشكلة البحث وسبب العمل فيه.

منهجية البحث: فرضت تلك الأهداف على هذا المشروع اتباع المنهج التحليلي، القائم على التحليل والتأويل والمقارنة، والذي يُعنى بدراسة المكونات الجزئية للتعبير القرآني، ثم المقارنة بينها وبين غيرها مما يمكن التعبير به، للوصول من خلال ذلك إلى معالم كلية، نستطيع بواسطتها أن نحيط بالأهداف والمقاصد التي كان يقصد إليها الخليل من دعائه للبلد الأمين، كما فرضت هذه الأهداف أن يتشكل المشروع من مبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: أسرار التعبير القرآني عن دعاء الخليل لمكة المكرمة في سورة "البقرة".

المبحث الثاني: أسرار التعبير القرآني عن دعاء الخليل لمكة المكرمة في سورة "إبراهيم".

والخاتمة: لبيان أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول
أسرار التعبير القرآني عن دعاء الخليل لمكة المكرمة في سورة "البقرة"

الموضع الأول:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(البقرة 126- 129).

هذ أول دعاء يحكيه القرآن الكريم من أدعية خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وفيه مشهدان:

المشهد الأول:

مشهد إبراهيم الخليل، وهو يتضرع إلى الله تعالى بأن يجعل مكة بلدا آمنا، وأن يرزق أهله من الثمرات "**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**".

وهو دعاء يأتي في سياق حديث سورة البقرة عن مكانة الخليل عند ربه، ومنزلته التي أنزلها له بين الناس؛ تذكيرا لذريته بتاريخه، وحثا لهم على الاقتداء به، وعدم التنكر لملته، وملة سيدنا محمد ﷺ الذي يسير على منهجه "وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ"(البقرة 124).

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

ويأتي معطوفا علي قوله تعالى "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّي وَعَهِدْنَا إِلَي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"(البقرة 125)، الذي يؤكد تلك المكانة من خلال بيان ما يلي:

أولا- اختصاص الله تعالى البيتَ الحرامَ- الذي بناه إبراهيم عليه السلام- بأن يكون "مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا"، ومعني "مَثَابَةً": أنهم يأتون إليه من كل مكان، ولا يقضون منه وطرا، يأتونه ثم يرجعون إلي أهليهم، ثم يعودون إليه[1]، ومعني "أَمْنًا": أنه يحرم إيذاء من دخله وأوي إليه أو تخويفه[2]، وقدم الأول وأخر الثاني، لأن الثاني لا يُعرف ولا يُتحقق من حصوله إلا بحصول الأول.

ثانيا- أمره عزوجل الناسَ باتخاذ مقام إبراهيم عليه السلام (سواء أكان المراد به: المكان الذي كان يقف عليه وهو يبني الكعبة، أم أي مكان وقف فيه وصلى به) مكانا للصلاة.

ثالثا- عهده سبحانه وتعالى إلى إبراهيم وولده إسماعيل- دون غيرهما- بأن يقوما بتهيئة هذا البيت الآمن وتوطئته للطائفين والعاكفين والركع السجود، وما يلقي به ذلك العهد في نفوس المتلقين بصفة عامة، ومشركي مكة بصفة خاصة من استحضار الصورة التي كان عليها هذا البيت قبل أن يقوم الرسولان الكريمان بامتثال أمر الله تعالى لهما.

بعد ذلك يحكي القرآن الكريم ما ابتهل به أبو الأنبياء إلى ربه، ويكشف عما تضرع به إلى مولاه، في تلك الأثناء التي كانت فيها مكة مكانا غير معروف، وبيئة غير آمنة، إذ بين الذكر الحكيم أن ابتهاله جاء قاصدا إلى: أن تنسحب مزية الأمن والاجتماع التي اختص الله تعالى بها بيته الحرام على البلد الذي يقع فيه، وأن يكون رزق من عاش فيه مؤمنا بالله تعالى وافرا متنوعا.

ولا يخفى ما في ذلك من ذكاء وفطنة، إذ لا كمال للنعمة ولا تمام للمنة إلا بحصول هذين الأمرين للبقعة التي يقع فيها بيت الله الحرام، وبذلك يتضح لمشركي مكة، ولكل من يفعل مثلهم من ذرية إبراهيم ما هم فيه من جحود ونكران وعقوق لأعظم آبائهم، الذي كان حريصا عليهم وعلى ذريتهم، كما كان حريصا على المكان المؤمل إقامتهم فيه.

والمتأمل في نظم هذا الابتهال يجد أن الخليل عليه السلام بدأه بقوله "رَبّ" مؤثرا حذف أداة النداء، لما يُشْعِر به ذلك الحذف من قرب المنادَي سبحانه وتعالى، وشدة احتياج الداعي إليه، وعظم إقباله عليه، وغير ذلك مما يغني عن ذكر الأداة، التي قد يحول ذكرها دون هذه الإشارات في مقام الدعاء والابتهال، كما أنه من سنن القرآن في الدعاء بـ "رَبِّ".

واختيار اسم **"الرَّب"** ليُنادَي، له دلالته علي ثقته في إجابة دعائه، لما يشع منه من معاني الرعاية والحماية وقضاء المصالح[3]، يضاف إلي ذلك: أن هذا الاسم- بما يدل عليه من (التربية)- هو المناسب للدعاء بجعل هذا البلد آمنا؛ لما فيه من علم بأن الأمن معين علي الاجتهاد في العبادة وإقامة الشعائر في أي مكان، ولا سيما عند بيت الله الحرام، وفي إضافته إلي ضمير المتكلم إشارة إلي إعلانه أنه ليس له مَن يرعاه ويحقق دعاءه غيره سبحانه، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وسيأتي مزيد من بيانه في المواضع التالية.

وقوله "اجْعَلْ" أسلوب أمر غرضه التوسل والتضرع[4]، وإسناده إلي ضمير الرب سبحانه وتعالى فيه إقرار بقدرته، وإثارة لتحقيق مطلبه، كما أنه برهان ثقة في ربه ومولاه.

واستعمل إبراهيم عليه السلام اسم الإشارة "هذا" بدلا من تسمية الموضع القائم به أثناء الدعاء؛ "لما في ذلك من استحضار ذات المشار إليه، إذ الاستحضار بالذات مغن عن الإشارة الحسية باليد، لأن تمييزه عند المخاطب مغن عن الإشارة إليه، فإطلاق اسم الإشارة حينئذ واضح.

وأصل أسماء الإشارة أن يُستغني بها عن زيادة تبيين المشار إليه تبيينا لفظيا، لأن الإشارة بيان... وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو واقع عند الدعاء، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بني فيه

---

(1) الدر المنثور 616/1.
(2) السابق (بتصرف).
(3) المفردات في غريب القرآن- مادة رب.
(4) ينظر الإيضاح بشرح الصعيدي 2/ 271.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

الكعبة، لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة وجعل مكة بلدا آمنا ورزق أهله من الثمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عما لا يتعلق به المقصود"(1)، ويبدو لي في ذلك - بجانب ما سبق ذكره - رجاؤه الشديد بزيادة اختصاص البلد الذي أشار إليه بمزية الأمن والأمان، لما فيه من حرمٍ جعله الله تعالى مثابة للناس من كل مكان.

وربما يكون السر في عدم ذكر إبراهيم- عليه السلام- اسم هذه البقعة من الأرض أنها لمّا تكن معروفة بعد، ولمّا يكن لها اسم تذكر به، كما أن تسميتها في دعائه قد يضيق واسعا، وسيأتي مزيد من إيضاحه في دعاء سورة إبراهيم.

وفي تنكيره "بَلَدًا" وتنوينه ضرب من التعظيم والتفخيم(2) يوحي به اللفظ والجرس معا، فكأنه- عليه السلام- يبتهل بأن يكون لهذا البلد شأن عظيم، ومكانة مهيبة، وفي جرس "آمِنًا" المبدوء بحرف المد والمختوم به ما يشعر برغبته في أن يبلغ الأمن في هذه البقعة منتهاه، وألا يماثلها فيه بلد آخر.

ولا يخفي ما فيه من مجاز عقلي جاء من إسناد ما يجب أن يكون للحالّ إلي المحل، إذ المعني الحقيقي: آمنا أهله وزُوّارُه، غير أن ما جاء عليه التعبير القرآني المحكي علي لسان الخليل- عليه السلام- يبرز لنا رغبته في أن يشعر بنعمة الأمن كل شيء في هذا المكان، سواء في ذلك البشر وغيرهم.

واقتصر دعاؤه لهذا البلد علي أن يكون آمنا دون أن يكون مثابة، لأن الأول سبب في الثاني، ولأن وجود البيت الحرام فيه سيجعل منه مثابة ولا شك، ومن ثم اقتصر ابتهاله علي طلب الأمن في أعلي مستوياته، يقول صاحب التحرير والتنوير: "ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء، إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال علي ما ينفع ... وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه علي سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام"(3).

ثم سأل عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يرزق أهل هذا المكان من الثمرات دون الأطعمة والأغذية "وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ"؛ لأن طلب رزقهم من الثمرات متضمنٌ طلب رزقهم بالأطعمة والأغذية من باب أولي، إذ الأولي تأتي بعد الثانية، كما أنها عنوان رفاهية وغني وعدم احتياج، وكان دعاؤه بذلك ليحدث الاستقرار به وعدم الرحيل عنه، إذ الأمن مع الغذاء من أسباب الاستقرار والبقاء.

وآثر إبراهيم- عليه السلام- التعبير بـ "أَهْلَهُ" دون غيره مما يقوم مقامه، لما يُشعر به من التأهيل والأهلية والخصوصية، وفي إضافته إلى الضمير العائد على البلد ما يدل على أنهم فضلوا تأهيل هذا المكان، واستحسنوا الإقامة فيه، واختصوا برعايته وتحسينه، ومن ثم استحقوا ما يطلبه لهم من التوسعة ورغد العيش.

وقوله "مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ" بدل بعض من كل في قوله "أهلَه" يفيد تخصيصه، لأن "أهلَه" عام، إذ هو اسم جمع مضاف، وبدل البعض مخصِّص.

وفيه على ما يبدو لي- بجانب التأدب مع الله- ضرب من إثارة المتلقين الذين تبلغهم دعوته إلى الإيمان وعدم الكفر، ليتحقق لهم بذلك نوعان من النعيم والرغد، أحدهما: دنيوي، والآخر: في الآخرة عند لقاء الله سبحانه وتعالى، وبه تتجلى الأبوة الحانية، والإمامة الرحيمة، والإنسانية النبيلة التي كان يتسم بها خليل الله إبراهيم عليه السلام، والتي يماثله فيها تمام المماثلة سيد الخلق محمد ﷺ.

يقول ابن عاشور "وخصَّ إبراهيمُ المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصًا علي شيوع الإيمان لساكنيه؛ لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم خَصّت المؤمنين تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان، فجعل تيسير الرزق لهم علي شرط إيمانهم باعثا لهم علي الإيمان، أو أراد التأدب مع الله تعالى فسأله سؤالا أقرب إلي الإجابة"(4).

وخلاصة القول:

أن قصد الخليل إلى انسحاب مزية الأمن على البلد الذي يقع فيه بيت الله الحرام دفعه إلى أن يعبر بأسلوب الأمر المراد به التضرع والرجاء، وأن يعطف عليه طلب رزق أهله من الثمرات، وأن يُتبعه بقوله "مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ.."، مع

---

(1) التحرير والتنوير 694/1 وما بعدها.
(2) يراجع الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي 1/ 94.
(3) التحرير والتنوير 696/1.
(4) التحرير والتنوير 697/1.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

التمهيد له بنداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية المفيد للتوسل والاستعطاف، ليلقى طلبه القبول والإجابة، وهو ما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى بعد الدعاء "وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَي عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"، والذي من أسراره: حثُّ أهل هذا البلد بصفة خاصة، وحث أهل كل بلد بصفة عامة علي شكر نعم الله تعالى عليهم- لا سيما الأمن والطعام- بالتمسك بتعاليمه، وعدم الكفر بربوبيته، لأنه إذا كان هذا وعيدا لأهل البلد الحرام، فإنه وعيد لغيرهم من باب أولي.

*****

المشهد الثاني:

مشهد مهيب، وحدث عظيم في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو مشهد بناء البيت الحرام، الذي يصوره لنا القرآن الكريم، كما لو كانت الأعين تراه هذه اللحظة، وتسمع ما فيه الآن "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ"، وبينما نحن في انتظار بقية الحديث، إذ بالسياق يكشف لنا عنهما، ويرينا إياهما، كما لو كانت رؤية الحقيقة لا رؤيا الخيال أو المنام، إنهما أمامنا حاضران، نكاد نسمع صوتيهما يدعوان ويقولان: **"رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".**

وهو دعاء يأتي في ذات السياق الذي ورد فيه الابتهال الأول، سياقِ الكشف عن فضل إبراهيم- عليه السلام- على البشرية من بعده، وحرصه على من يأتي من نسله، وأن ذلك الحرص ينبغي أن يُقابل بالمثل، ويستدعي أن يُحفظ له الجميلُ باتباع ملته، والإيمان بالنبي السائر على منهجه.

وقيل: إن "هذا القول من كلام إبراهيم؛ لأنه الذي يناسبه الدعاء لذريته؛ لأن إسماعيل كان حينئذ صغيرا"[(1)]، ولكن النظم هنا يشير إلى أن ولدَه اسماعيل عليه السلام، كان يشاركه الدعاء والابتهال، لأنه كان يشاركه العمل والجهد في تهيئة بيت الله الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهي إشارة تدل على أن حرصَ إبراهيم على امتثال أمر الله، وشفقتَه على أمته وذريته كانا متغلغلين مغروسين في قلبه، وأنه عمل أيضا على أن يكونا كذلك في قلوب أبنائه وأهله، وذلك واضح مما كانا يدعوان به، ويتضرعان إلى الله تعالى من أجله، حيث كانا يلهجان ويكرران المطالب التالية:

أولًا- أن يتقبل الله عملهما "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ".

ثانيًا- أن يديم الله تعالى عليهما نعمة الهداية إلي الإسلام "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ".

ثالثًا- أن تمتد نعمة الإسلام لتشمل كل من يأتي من نسلهما "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ".

رابعا- أن يمنّ الله تعالى على ذريتهما بأن يرسل فيها رسولا عظيما، فيه من الحرص والرحمة بهذه الذرية ما يجعلهما في اطمئنان عليها، ويزيل ما يعتريهما من خوف وقلق تجاهها "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

وعن مناسبة هذه الآيات لما قبلها في السياق، يقول أبو حيان "لما دعا ربه بالأمن لمكة، وبالرزق لأهلها، وبأن يجعل من ذريته أمة مسلمة، ختم الدعاء لهم بما فيه سعادتهم دنيا وآخرة، وهو بعثه محمدًاﷺ فيهم، فشمل دعاؤه الأمن والخصب والهداية"[(2)].

وهكذا كل كلام بليغ، لابد من ترابط كلماته وتلاحم جمله وعباراته، بحيث تصير الأولي مؤدية إلي الثانية، والثانية مترتبة علي الأولي ومتناسلة منها، حتي تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، ويصير حال المنشئ لها حال الباني، يضع بيمينه ههنا، في حال ما يضع بيساره هناك، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين..[(3)].

وإذا كان هذا شأن كل كلام بليغ يصدر عن البشر، فما بالنا بكلام الله ﷻ، الذي عجز البشر عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه "وقد وهم من قال: لا يطلب للآية الكريمة مناسبة، لأنها علي حسب الوقائع متفرقة، وفصل

(1) التحرير والتنوير 699/1 وما بعدها.
(2) البحر المحيط 392/1
(3) ينظر: دلائل الإعجاز 93 بتصرف.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

الخطاب: أنها علي حسب الوقائع تنزيلًا، وعلي حسب الحكمة ترتيبًا، فالمصحف... مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف... كما أنزل جملة إلي بيت العزة، ومن المعجز البيّن أسلوبه ونظمه الباهر...، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جم"[1].

وافتتح الخليل وولدُه اسماعيل تضرعَهما بقبول العمل الذي كانا يقومان به، وهو بناءُ بيت الله الحرام وتهيئتُه للطائفين والعاكفين والركع السجود، بقولهما "رَبَّنَا" جريا على العادة التي درجا عليها في افتتاح ابتهالاتهما بنداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية؛ لما سبق بيانه من اختصاص هذا الاسم بمعاني الرعاية وقضاء المصالح وتحقيق الحاجات، يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم بما يشع منه من معنى التربية هو المناسب للدعاء بتقبل العمل، لعلم المربي سبحانه وتعالى أن قبول العمل والإثابة عليه له أثر كبير في نفوس الداعيين، إذ يشعرهما بالطمأنينة، ويجلب لهما السعادة، ويثيرهما إلى مزيد من العمل الصالح، كما أنه يدفع عنهما قلقا يسيطر عليهما، وخوفا يتردد بين جنباتهما.

ولعل هذه المعاني هي التي آثرت تقديمهما الابتهال بقبول الأعمال على غيره من الأدعية، على الرغم من أهميتها، وشدة حاجتهما إليها، يقول الإمام: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، يقول صاحب الكتاب: كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى"[2].

وفي إضافة الاسم الجليل إلي ضمير المتكلمَين "رَبَّنَا" ما يشعر بثقتهما في علمه بحالهما، واطلاعه على ما يعتلج في صدورهما، كما أن فيه إعلانا وافتخارا بأنه ليس لهما من يرعاهما ويقدر على تحقيق مطالبهما غير ربهما تبارك اسمه، وتعالى جده، يضاف إلى ذلك أن حذف حرف النداء فيه تأكيد لتلك المعاني، وإشعار بإحساس الداعي بقربه الشديد من ربه الذي يدعوه ويتضرع إليه، فهو نداء فيه من الاستعطاف والإثارة ما لا يخفى، كما أن فيه إرشادا لكل داع ومبتهل.

وإيثارهما التعبير بـ "تَقَبَّلْ مِنَّا" دون "اقبل منا" لما فيه من الشعور بالتقصير الدافع إلى زيادة التضرع، وإظهار شدة الأمل في قبول العمل، إذ من المعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وفيه أيضا ما يدل على ما كان عليه إبراهيم واسماعيل- عليهما السلام- من رجاء شديد ورغبة واسعة في قبول أعمالهما بصفة عامة، وقبول عملهما في خدمة بيت الله الحرام بصفة خاصة، مما يجعل منهما نموذجا ملهما للبشرية.

يقول أبوحيان "والمراد بالتقبل: الإثابة، عبر بأحد المتلازمين عن الآخر، لأن التقبل هو أن يقبل الرجل من الرجل ما يهدي إليه، فشبه الفعل من العبد بالعطية، والرضا من الله تعالى بالتقبل توسعا، وحكى بعض المفسرين عن بعض الناس فرقا بين القبول والتقبل، قال: التقبل تكلف القبول، وذلك حيث يكون العمل ناقصا لا يستحق أن يقبل، قال: فهذا اعتراف من إبراهيم وإسماعيل بالتقصير في العمل، ولم يكن المقصود إعطاء الثواب، لأن كون الفعل واقعا موقع القبول من المخدوم، ألذ عند الخادم العاقل من إعطاء الثواب عليه، وسؤالهما التقبل بذلك، على أن ترتيب الثواب على العمل ليس واجبا على الله تعالى، انتهى ملخصا. ونقول: إن التقبل والقبول سواء بالنسبة إلى الله تعالى، إذ لا يمكن تعقل التكليف بالنسبة إليه تعالى" [3].

والذي يظهر لي أن المراد بالتقبل في ضراعة المتضرعين هو: الرضا المستلزم حصول الثواب والمكافأة من المدعو، لا سيما إذا كان المدعو هو الله جل في علاه، إذ المعهود منه عزوجل الكرم السابغ، والعطاء الذي لا حدود له.

وجملة "إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" تذييل جيء به لتعليل طلب التقبل منهما، وفي نظمها ضرب من المدح المقرون بالإثارة إلى تحقيق دعائهما، وتلبية طلبهما، حيث جيء بالوصفين على زنة فعيل التي للمبالغة، كما تم تعريف ركني الجملة، مع الإتيان بضمير الفصل "أَنْتَ" متوسطا بين هذين الركنين، وهذا مفيد للقصر بطريقين:

أحدهما: تعريف ركني الجملة.

الآخر: توسط ضمير الفصل بين المسند إليه والمسند.

([1]) البرهان في علوم القرآن للزركشي- تحقيق/ مصطفي عبد القادر عطا 63/1.

([2]) دلائل الإعجاز 107.

([3]) البحر المحيط 621/1.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

والغرض من ذلك تمكين الكلام وتقريره[1]، من خلال الإبلاغ في كمال الوصفين وتأكيد ثبوتهما لله عزوجل ونفيهما عن أي أحد سواه، وهو من باب القصر الحقيقي، لأن معناه: السميع لدعائنا، العليم بقصدنا.

"وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال، فهو السميع لضراعتهما وسؤالهما التقبل، وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما، وتقدّمت صفة السميع- وإن كان سؤال التقبل متأخرا عن العمل- للمجاورة، نحو قوله "يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ"(آل عمران 106)، وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات[2].

وفصلت هذه الجملة عما قبلها، لما يعرف بكمال الانقطاع، حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاء، والذي أراه أنه هنا اختلاف "لا يعلل الفصل بينهما، لأنه تعليل لا يحلل الأسلوب، ولا يقف على ما بينه من روابط، مع أننا نجد الروابط متينة وحية بين هاتين الجملتين، ويتحقق فيهما ما يتحقق في غيرهما ... وعلاقات المعاني بين الجمل لا تتأثر بأن هذه خبر وتلك إنشاء، وإنما هما سواء من حيث أنساب المعاني"[3]، إذ يبدو ارتباط هذه الجملة بسابقتها واضحا من حيث كونها تثير إلى إجابة دعائهما، مما يجعلها كالتعليل المشرب بالتأكيد لما سبق ابتهالهما به.

هذا بالإضافة إلى ما لـ "إنّ" في صدرها من مزية، فبجانب ما تفيده من تأكيد فإنها- أيضا- تربط بين الجملتين برباط وثيق لا يتحقق بغيرها من الحروف، فأنت تري الكلام بها مستأنفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولًا معًا[4].

وبعد ابتهالهما بقبول العمل يأتي طلبُهما دوامَ الهداية إلى الإسلام، وسؤالُهما الله تعالى الثبات عليه "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"، وثنيا به لأن تحقيقه يعد مظهرا من مظاهر الرضا، ودليلا من أدلة قبول العمل، الذي تضرعا به قبله ، ومن ثم أتى معطوفا عليه، مقدما على ما بعده.

وجاء هذا الدعاء مفتتحًا بقولهما "رَبَّنَا"، كما افتتحا به ما سبق من دعاء، لإظهار شدة الضراعة إلى الله تعالى، وبيان أن كل دعاء من هذه الأدعية مقصود لذاته، بجانب ما فيه من التلذذ والتبرك والتشرف بتكرار الاسم الكريم مضافا إلى ضميرهما.

وقولهما: "وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ" أسلوب أمر غرضه الدعاء والتضرع بأن يديم الله تعالى عليهما نعمة الإسلام دينا، ونعمة الانقياد والاستسلام خُلُقا، لما لذلك من أثر بالغ فيما يشعران به من مشاعر إيمانية، وما يسعدان به من عطايا ربانية، وما اختصهما الله تعالى به من اصطفاء واجتباء يتمثل في رفع قواعد البيت الحرام، والمعنى: "مخلِصين لك، أو مستسلمين، من أَسلم إذا استسلم وانقادَ، وأيا ما كان فالمطلوبُ الزيادةُ والثباتُ على ما كانا عليه من الإخلاصِ والإذعانِ"[5].

هذا على قراءة الجمهور"مُسْلِمَيْنِ"، وقرأ ابنُ عباس وعوفُ الأعرابي "مُسلِمِين" على الجمع، دعاء لهما وللموجود من أهلهما، كهاجر، وهذا أولى من جعل لفظ الجمع مرادا به التثنية، وقد قيل به هنا[6]، لأن من يُعرف عنه الحرص على ذريته، لن يفوته الحرصُ على زوجه أمِّ ولده.

وجاءا بالجار والمجرور "لَكَ"، مع إمكان الاكتفاء بـ "مُسْلِمَيْنِ" لبيان جهة الإسلام وتخصيصها، إذ من الممكن أن يسبق إلى الفهم أن الإسلام والانقياد يكون له سبحانه وتعالى، كما يكون لغيره، فكان لا بد من ذكر الجار والمجرور احترازا من ذلك.

و "مِنْ" في قولهما "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ" يمكن أن تكون للتبعيض؛ لأنه لما تقدّم الجواب لإبراهيم بقوله "لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ" (البقرة 124) "علم أن من ذريته الظالم وغير الظالم، فدعا هنا بالتبعيض لا بالتعميم،

---

(1) يراجع بغية الإيضاح- للشيخ عبدالمتعال الصعيدي 2/ 221.
(2) البحر المحيط 621/1.
(3) دلالات التراكيب/ 324، والقول بعدم جواز وصل الجملتين المختلفتين خبرا وإنشاء جرى فيه خلاف كثير، عرض له الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى في كتابه: دلالات التراكيب، مما يغني عن إعادته هنا. يراجع دلالات التراكيب 324 وما بعدها.
(4) ينظر دلائل الإعجاز 273 وما بعدها.
(5) إرشاد العقل السليم 206/1.
(6) البحر المحيط 621/1.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

فقال "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا"[1]، ويمكن- على ما يبدو لي- أن تكون بيانية جيء بها لتأكيد طلبهما هداية ذريتهما إلى الإسلام وعدم صرفهم عنها، على سبيل المبالغة في الدعاء، والتأكيد في الطلب، ثم تفويض أمر الإجابة إلى الله تعالى، إن شاء هدى بعضهم، وإن شاء هداهم أجمعين، وعندئذ لا تعارض بينها وبين كونها تبعيضية.

وخصا ذريتهما بالدعاء؛ شفقةً وحُنوا، ولأن في صلاح نسل المتقين نفعا كثيرا لمتبعهم، إذ يكونون سببا في هداية من وراءهم، ولأن شعور إبراهيم وولده إسماعيل- عليهما السلام- بقيمة نعمة الإسلام التي أسبغها الله تعالى عليهما يدفعهما إلي الحرص عليها في عقبهما، وإلي دعاء ربهما ألا يحرم ذريتهما من هذه النعمة الذي لا تضاهيها نعمة، يقول ابن عاشور "وإنما سألا ذلك... جمعا بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأن نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أمما كثيرة، وأن حكمة الله في هذا العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادة، وهذا من أدب الدعاء"[2].

وجيء بالمفعول"أُمّة" نكرة للتكثير[3]، وبالجار والمجرور"لَكَ" مع المفعول الثاني"مُسْلِمَةً"، كما جيء به في دعائهما لنفسيهما "مُسْلِمَيْنِ لَكَ"؛ للإلحاح إلى أن حبهما لذريتهما وحرصهما عليها- مهما كثر عددها- مماثل لحب كل واحد منهما لنفسه، وحرصه عليها.

يقول صاحب التحرير والتنوير: "وقوله "وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا" سؤال لإرشادهم إلى كيفية الحج الذي أُمرا به من قبل أمرا مجملا"[4]، ويبدو لي أن هذا التعبير غير دقيق، لأن الأمر بالدعوة إلى الحج كان بعد إتمامهما بناء البيت، والأدق- من وجهة نظري- أن يكون إبراهيم واسماعيل- عليهما السلام- قد دعوا بذلك، لما فهماه من أن هذا البيت سيكون موضع نسك وعبادة، ولكنهما لا يعرفانها، ولا يحيطان بها علما، فدعوا الله تبارك وتعالى أن يخبرهما بتلك المناسك، ويعلّمهما إياها، ليقوما بها على الوجه الذي يرضيه عزوجل، ولعل هذا ما دفعهما لعطف الدعاء بالتوبة والمغفرة من التقصير في قولهما "وَتُبْ عَلَيْنَا"، على ما دعوا به هنا، جريا على عادتهما في طلب جبران ما يعتري طاعتهما من التقصير، الذي هو سمةُ البشر أجمعين.

والمناسك جمع منسك، مشتق من نسك، وهو أصلٌ صحيح يدلُّ على عِبادةٍ وتقرُّب إلى الله تعالى[5]، والمقصود به في هذا السياق: الأعمال التي سيقومان بها عند هذا البيت، والتي يتحقق بها الغرض من رفع قواعده، والتي عرفت فيما بعد بأنها مناسك الحج.

وحرف السين المكسورة من حروف الهمس، وهو يتصف بالرخاوة واللين، وفي توسطه كلمة "مَنَاسِك" إلماح إلى ما تتركه هذه الأفعال في نفس من يؤديها من راحة وهدوء، وما تطبعه على تلك النفس من ذلة وانكسار لله الواحد القهار، ولعل هذا ما كان يعتريهما من مشاعر عند رفعهما قواعد البيت، وما فهماه من انسحابه على جميع الأفعال التي تُودَّى عنده، ولعله أيضا من بعض أسرار إيثارهما هذه الكلمة مضافة إلى الضمير العائد عليهما، والله تعالى أعلم.

والرُّؤْيَةُ: إدراك الْمَرْئِيُّ ... بالحاسّة وما يجري مجراها ... ورَأَى إذا عدّي إلى مفعولين اقتضى معنى العلم[6]، وعبرا به عن العلم والإحاطة هنا؛ للإلماح إلى رغبتهما في أن يكون إعلامهما بالمناسك شبيها بالرؤية البصرية في الوضوح والبيان، لفهمهما أن ذلك سيؤخذ عنهما.

أما طلبهما التوبة بعد ذلك "وَتُبْ عَلَيْنَا" فقد سبقت الإشارة إلى أنه من باب خوفهما من التقصير في أداء هذه المناسك على الوجه الذي يرضاه المولى سبحانه وتعالى، لأن تقصيرهما قد يفوت شيئا من المقاصد التي لأجلها أمرهما المولى سبحانه وتعالى برفع قواعد البيت الحرام، يقول البقاعي "ولما كان الإنسان محل العجز فهو أحوج

---

(1) التحرير والتنوير 700/1.
(2) السابق.
(3) ينظر الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي1/ 94.
(4) التحرير والتنوير 700/1.
(5) مقاييس اللغة - مادة نسك.
(6) مفردات القرآن - مادة رأى.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

شيء إلى التوفيق، قال "وَتُبْ عَلَيْنَا" إنباءً بمطلب التوبة إثر الحسنة، كما هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات، وقد رجعا بها إلى من له الخلق والأمر "[1].

ولا مانع مما قاله أبو حيان من أن "... توبة خواص الخواص لرفع الدرجات، والترقي في المقامات، فإن كان إبراهيم وإسماعيل دعوا لأنفسهما بالتوبة، وكان الضمير في قوله "وَتُبْ عَلَيْنا" خاصا بهما، فطلبهما التوبة هنا من هذا القسم ... ويحتمل أن يريد التثبيت على تلك الحالة مثل: "رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ"، وإن كان الضمير شاملا لهما وللذرية، كان الدعاء بالتوبة منصرفا لمن هو من أهل التوبة، وإن كان الضمير قبله محذوفا مقدرا، فالتقدير على عصاتنا، ويكون دعاء بالتوبة للعصاة"[2].

وجملة "إِنَكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" يقال فيها مثل ما قيل في جملة "إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"، فهي تذييل وتعليل لطلبهما التوبة وما سبقه من أدعية، وفي نظمها ضرب من المدح المقرون بالإثارة إلى تحقيق دعائهما، وتلبية طلبهما، حيث جيء بالوصفين على صيغتين من صيغ المبالغة، كما تم تعريف ركني الجملة، مع الإتيان بضمير الفصل "أَنْتَ" متوسطا بين هذين الركنين، لإفادة القصر بطريقين يتآزران معا لتقرير الكلام وتحقيق الإبلاغ في كمال الوصفين وتأكيد ثبوتهما لله عزوجل ونفيهما عن أي أحد سواه.

وهاتان الصفتان مناسبتان؛ لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين، ومن ذريتهما أمة مسلمة، وبأن يريهما مناسكهما، وبأن يتوب عليهما، فناسب ذلك ذكر التوبة عليهما، والرحمة لهما، وقدم ذكر التوبة على الرحمة، لمجاورتها الدعاء بطلب التوبة في قولهما "وَتُبْ عَلَيْنا"، وتأخرت صفة الرحمة لعمومها، ولما فيها من تناسب وتناغم مع الفاصلتين السابقة واللاحقة[3]، وقد سبقت الإشارة إلى سبب فصل هذه الجملة عن سابقتها، مع بيان ما لـ "إنّ" من مزية في أولها في المطلب السابق.

وفي المطلب الرابع من مطالبهما قالا "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

"ومظهر هذه الدعوة هو سيدنا محمد ﷺ، فإنه الرسول الذي من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، أما غيره من رسل العرب فليسوا من ذرية إسماعيل"[4] و خصا ذريتهما بهذا الدعاء أيضا؛ لأن الذرية أحق بالشفقة والمصلحة، قال تعالى: "قوا أنفسكم وأهليكم نارا"(التحريم 6)، ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم، وتابعهم علي الخيرات، كما سبق ذكره.

وهذا الابتهال- إلي جانب ما فيه مما سبق توضيحه - فإنه يعد بشارة ببعث سيدنا محمد ﷺ، ففي الأثر: أنه لما دعا إبراهيم عليه السلام بهذا الدعاء قيل له: قد استجيبت لك، وهو يكون في آخر الزمان، روي الإمام أحمد عن العرباض بن سارية عن رسول الله ﷺ أنه قال: "سأخبركم بأول أمري، أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسي، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني"[5].

وقولهما "ابْعَثْ" أسلوب أمر غرضه الدعاء والرجاء كسابقيه، وتعليقه بـ "فِيهِمْ" يشير إلي عموم رسالة النبي ﷺ لهم ولغيرهم، حيث عبر بـ "فِيهِمْ"، ولم يقل: لهم، لتكون الدعوة بمجيئ رسول برسالة عامة، فلا يكون ذلك الرسول رسولًا إليهم فقط، ولذلك حذف متعلق "رَسُولًا" ليعم[6]، وعلي هذا فقولهما "وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا" يدل علي أنهما يدعوان بإرسال رسول- إلي ذريتهما- برسالة عامة، تشملهم وغيرهم، وفي الوقت نفسه يتميزون به، وتكون لهم به خصوصية عن غيرهم من سائر الأمم، وفيه من تشريفهم ورفعة شأنهم ما لا يخفى.

([1]) نظم الدرر 343/1.
([2]) البحر المحيط 623/1 وما بعدها.
([3]) ينظر البحر المحيط 626/1.
([4]) التحرير والتنوير 722/1.
([5]) مسند الإمام أحمد 127/4 برقم : 17190، والمستدرك للحاكم- تحقيق مصطفي عطا 453/2 برقم : 3566 وشعب الإيمان للبيهقي- تحقيق محمد السيد زغلول 134/2 برقم: 1385.
([6]) التحرير والتنوير 700/1.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

كما أن مادة "بَعَثَ" بدلالتها علي- "إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث"[1]- فيها إشارات منها: اعتقادهما أن أمر البعث والإرسال من خصوصيات الله تعالى وحده دون غيره، ومنها: الإشارة إلي ما سيحدث بسبب إرساله ﷺ من تغيير في كثير من الأوضاع والأحوال، مما يعني أن ما سيترتب على بعثه من خير ستنال ذريتهما منه الشيء الكثير، والنصيب الكبير.

أما "الواو" فهي لعطف "ابْعَثْ" علي "تَقَبَّلْ"، والتقدير "ربنا تقبل منا ... واجعلنا ... وأرنا ... وتب علينا... وابعث فيهم"، "وتوسيط النداء بين المتعاطفين لإظهار مزيد الضراعة، والالتجاء إلي الرب الكريم سبحانه وتعالى"[2].

ومما يلحظ أن النداء بـ "رَبَّنَا" تكرر في هذا الدعاء ثلاث مرات: قبل طلبهما قبول العمل "رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ..."، وقبل طلبهما استمرار الهداية إلي الإسلام "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ..." وأخيرًا قبل طلبهما بعث سيدنا محمد ﷺ إلي ذريتهما "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ..."، في حين أنه لم يتكرر مع مطالب أخري، اكتفيا فيها بالعطف "وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ...".

ويظهر لي أن تكرار النداء بالاسم الكريم قبل مطالب بعينها، يشير إلي أهميتها الشديدة عند الطالب لها، وأنها أصول يبني عليها غيرها، فيدفعه ذلك إلي مزيد من الإلحاح والتوسل في طلبها، بذكر اسم "رَبّ" مضافا إلى ضميره قبل كل مطلب منها، أما غيرها فلأنه يحصل بحصولها اكتفي بعطفه عليها.

ونكر "رَسُولًا" للتعظيم، وليتسنى وصفه بالنعوت التي هي مناط قصد إبراهيم وولده إسماعيل في هذا السياق، ومنها قوله "مِنْهُمْ"، الذي يشير إلي "تميز ذريته وكمال حالهم من وجهين:

أحدهما- أن يكون فيهم رسول يكمل لهم الدين والشرع، ويدعوهم إلي ما يثبتون به علي الإسلام.

والآخر- أن يكون ذلك المبعوث منهم لا من غيرهم؛ لوجوه: أحدها: أن يكون محلهم ورتبتهم في العز والدين أعظم...وثانيها: أنه إذا كان منهم فإنهم يعرفون مولده ومنشأه، فيقرب عليهم الأمر في معرفة صدقه وأمانته، وثالثها: أنه إذا كان منهم كان أحرص الناس علي خيرهم، وأشفق عليهم، مما لو كان من غيرهم إذا أرسل إليهم"[3]، ولا يخفى ما في ذلك من حرص إبراهيم وإسماعيل على ذريتهما وانشغالهما الشديد بها.

وقوله: "يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ" صفة ثانية لـ "رَسُولًا" جاءت لتبرز جانبًا مهما من جوانب عظمة الرسول المبشر به ﷺ، وفيها أيضا برهان جديد على انشغال الرسولين الكريمين بالذرية التي يتنكر كثير من أفرادها لهما، ويعرضون عن اتباع الرسول السائر على منهجهما.

فالتعبير بـ "يَتْلُو" فيه إشارة إلي أن قراءة النبي ﷺ الآيات عليهم، ليست قراءة مطالعة، إنما هي قراءة لها خصوصية التذكير والتأثير، الذي يستتبع العلم والعمل، يقول ابن فارس: "التاء واللام والواو أصل واحد، وهو الاتباع، يقال: تلوته إذا تبعته، ومنه تلاوة القرآن لأنه يتبع آية بعد آية"[4]، ويقول الراغب "التلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، أو ما يظن فيه ذلك، وهو أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة"[5]، وأوثر التعبير بالمضارع، لدلالته علي التجدد[6]، وفيه إشارة إلي تجدد دور الرسول ﷺ واستمراره في أمته عامة وفي تلك الذرية خاصة، حتي بعد انتقاله إلي الرفيق الأعلى، وأن واجب أتباعه- من هذه الذرية وغيرها- تلاوة القرآن، لا قراءته مجرد قراءة.

فلأن القرآن معجزة النبي ﷺ وشاهد صدقه من الله عز وجل "لم تنقض هذه الشهادة بموت النبي ﷺ بل استمرت علي مر الأيام وكر الأعوام، لبقاء الشاهد وتعاليه عن شوائب النقص وسمات الحدث، وإلي ذلك الإشارة بقول النبي

---

(1) المفردات مادة بعث 68 .
(2) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين- سليمان بن عمر الجمل 238/1.
(3) تفسير الفخر الرازي 71/4، 72.
(4) مقاييس اللغة - مادة تلو.
(5) المفردات - مادة تلو.
(6) يراجع الإيضاح بشرح الشيخ الصعيدي 166/1.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

ﷺ "ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"[1]"[2].

و"الآيات" جمع "آية"، وفي المقصود بها رأيان، أحدهما: أنها العلامات الدالة علي التوحيد والنبوة وغيرهما[3] والآخر: أنها الجملة من القرآن، سميت آية لدلالتها علي صدق الرسول ﷺ بمجموع ما فيها، من دلالة صدور مثلها من أمي لا يقرأ ولا يكتب، وما نسجت عليه من نظم أعجز الناس عن الإتيان بمثله، ولما اشتملت عليه من الدلالة القاطعة علي توحيد الله وكمال صفاته[4]، ويبدو لي أن الرأي الثاني أنسب للسياق.

وفي إضافة الـ "الآيات" إلي ضمير الحق سبحانه وتعالى من تعظيمها وإجلالها مالا يخفي، كما أنه يشير إلي ضرورة التصديق بها والإيمان بمن نزلت عليه، لأن مصدرها الحق ﷻ، وفي تقديم الجار والمجرور "عَلَيْهِمْ" علي المفعول "آيَاتِكَ" دلالة علي البدء بهم، وإعلامهم بوحي الله تعالى قبل غيرهم، اهتماما بهم، وحرصا عليهم.

وقوله "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" صفة ثالثة لـ "رَسُولًا" تكشف أيضا عن جانب مهم من جوانب حرصهم على ذريتهم، والمقصود بـ "الْكِتَابَ": القرآن الكريم، "وفي تسميته بهذين الاسمين توجيه إلي أن من حقه العناية بحفظه في موضعين، لا في موضع واحد، يعني: أنه يجب حفظه في الصدور وفي السطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة بحفظ حافظ حتي يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، ... ولا ثقة بكتاب كاتب حتي يوافق ما هو عند الحفاظ، بالإسناد الصحيح المتواتر"[5].

وقوله "يُعَلِّمُهُمُ" إشارة إلي أثر الرسول ﷺ في إفهام الذرية معاني القرآن، وبيان مراميه، والوقوف علي أحكامه للتمسك بها والعمل بمقتضاها، إذ العلم معناه: إدراك حقيقة الشيء[6]، وفي عطف جملة "يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ" علي ما قبلها بالواو إشارة إلي اقتران التعليم والتفهيم بالتلاوة، لأن ذلك أجدي وأنفع في تربية الذرية.

أما "الْحِكْمَةَ" فقد اختلف المفسرون في المراد بها علي وجوه:

أحدها: معرفة الدين والفقه فيه، وثانيها ... سنة رسول الله ﷺ، وثالثها: أن الحكمة هي الفصل بين الحق والباطل...، ورابعها: قيل: إن المراد بـ "الْكِتَابَ" الآيات المحكمات، والمراد بـ "الْحِكْمَةَ": الآيات المتشابهات[7].

والذي أميل إليه هو الرأي الثالث لكونه أعم وأشمل، وأولى بالقبول، لأن الإنسان لن يستطيع الفصل بين الحق والباطل، إلا إذا كان علي معرفة بالدين- كتابا وسنة- وعلم واسع بالمحكمات والمتشابهات من الآيات، كما أنه يعد الأقرب لما تدل عليه مادة: "حَكَمَ"، يقول الراغب: "حكم أصله: منع منعا لإصلاح ...، والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل"[8]، هذا بالإضافة إلي أن ذكر "الْحِكْمَةَ" متأخرة عن التلاوة والتعليم يشير إلي أنها مترتبة عليهما، وأنها كالثمرة لهما، وعطفها بالواو علي "الْكِتَابَ" يدل علي مغايرتها له كما هو الغالب في العطف بها، مما يقوي أن المقصود بها: الفصل بين الحق والباطل، خاصة في الأمور التي لم يرد فيها حكم في الكتاب ولا في السنة، مما يعني تأهيلهم لاستنباط الأحكام الشرعية فيما يستجد في حياتهم، لئلا يحيدوا عن منهج الكتاب المنزل إليهم، فيتسبب عن ذلك عقاب الله تعالى لهم.

وتعليم النبي ﷺ لأمته "الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ" يشير إلي تحليه ﷺ بالحلم والصبر وسعة الصدر؛ إذ لا يخفي ما في ذلك من مشقة؛ لأنه يحتاج إلي تكرار ومداومة، ولذا جاء التعبير بالمضارع "يُعَلِّمُهُمُ" معبرا عن ذلك بزمانه وجرسه، وهذا هو أحد جوانب العظمة والحرص، الذي تكشف عنه هذه الصفة من أوصاف الرسول المُبتهَل ببعثه

---

(1) البخاري – كتاب فضائل القرآن – باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل.
(2) نظم الدرر2/600، 601.
(3) ينظر: الكشاف1/139، روح المعاني 1/387.
(4) التحرير والتنوير1/723.
(5) النبأ العظيم/ 24.
(6) المفردات - مادة علم.
(7) تفسير الفخر الرازي4/ 73.
(8) المفردات - مادة حكم.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

فيهم، يقول أبو حيان: "وأسند التعليم للرسولﷺ؛ لأنه هو الذي يلقي الكلام إلي المتعلم، وهو الذي يفهمه ويتلطف في إيصال المعاني إلي فهمه، ويتسبب في ذلك"[1].

وقوله "وَيُزَكِّيهِمْ" صفة رابعة من أوصاف الرسول ﷺ، تشير إلي اهتمامه بالباطن والظاهر، "ومعناها: يطهرهم باطنا من أرجاس الشرك وأنجاس الشك، وقاذورات المعاصي، وظاهرا بالتكاليف التي تمحص الآثام وتوصل الأنعام، قال ابن عباس رحمه الله: التزكية: الطاعة والإخلاص"[2].

وإيثار مادة "زكى" بما تدل عليه من "نماء وزيادة"[3]، وإسنادها إلي ضمير الرسول ﷺ فيه إشارة إلي بلوغهم في ذلك منزلة عالية بسبب النبي ﷺ، يقول البقاعي: "معني "يُزَكِّيهِمْ": يطهر قلوبهم بما أوتي من دقائق الحكمة، فترتقي بصفائها ولطفها من ذروة الدين إلي محل يؤمن عليها فيه، أن ترتد علي أدبارها، وتُحرّف كتابها كما فعل من تقدمها"[4].

واختيار زمن المضارع، للتعبير به في الأفعال الثلاثة "يَتْلُو"، "يُعَلِّمُهُمُ"، "يُزَكِّيهِم" لكونه يدل علي التجدد المستمر- كما سبق توضيحه- فيه إشارة أخري إلي خلود الرسالة الإسلامية، وبقاء دعوة النبي ﷺ في البشرية إلي يوم القيامة، فدوره ﷺ باق، يحمله مِن بعده العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وبذلك يبقي للأفعال الثلاثة دلالتها علي الاستمرار إلي أن تقوم الساعة.

وجاء ترتيب هذه الأفعال في الذكر علي حسب ترتيبها في الوجود، "لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن، ثم يكون تعليم معانيه، قال تعالى: "فإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ"(القيامة 18،19)، ثم العلم تحصل به التزكية"[5].

وتقديم العلم علي التزكية فيه إشارة إلي شرف العلم وأهميته بالنسبة لهذه الأمة، كما أن تقديمه يتناسب مع المقام، لأنه "لما كان ظاهر دعوته عليه السلام: أن البعث في الأمة المسلمة، كانوا إلي تعليم ما ذكر أحوج منهم إلي التزكية، فإن أصلها موجود بالإسلام"[6]، بخلاف تقديمها في سورة الجمعة[7]، لأنه سبحانه لما ذكر بعثه في الأميين الأميين عامة، اقتضي المقام تقديم التزكية، التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر، ليقبلوا ما جاءهم من العلم، وأما تقديمها في سورة آل عمران[8] مع ذكر البعث للمؤمنين، فلاقتضاء الحال بالمعاتبة علي الإقبال علي الغنائم، الذي كان سبب الهزيمة، لكونه إقبالا علي الدنيا، التي هي أم الأدناس[9].

وجملة "إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" أبلغ تذييل لهذا الطلب، لما يلي:

أولا- تأكيدها بأكثر من مؤكد (إن- القصر بطريقين) للإشارة إلي عمق إيمانهما باتصاف ربهما سبحانه وتعالى بهاتين الصفتين.

ثانيا- مجيء صفتي "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" بزنة فعيل، للإشارة إلي أنه لا حدود عندهما لاتصافه تعالى بهما.

ثالثا- اختيار هاتين الصفتين دون غيرهما من أوصاف الله عز وجل، له أثره في إجابة الدعاء، لأن "الْعَزِيز" معناه: الغالب الذي لا يعجزه شيء أيا كان، و "الْحَكِيمُ" بمعني: المحكم، فهو فعيل بمعني مفعل، من "أحكم، إذا أتقن الصنع بأن حاطه من الخلل"[10]، والمقصود: أن الله تعالى يضع الأمور في نصابها الصحيح، لعلمه بما يصلح خلقه وما يفسدهم، ومن كانت العزة من صفاته فهو حقيق بإجابة دعائهما، ومن كانت الحكمة صفة له فهو عالم بأن

([1]) البحر المحيط 1/ 393.
([2]) السابق .
([3]) مقاييس اللغة - مادة زكى.
([4]) نظم الدرر 1/ 244.
([5]) التحرير والتنوير1/ 723 .
([6]) نظم الدرر1/ 244.
([7]) في قوله تعالى "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (الجمعة:2).
([8]) في قوله تعالى: " لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ" (آل عمران 164).
([9]) نظم الدرر 1/ 244.
([10]) التحرير والتنوير 1/ 415.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

صلاح ذريتهما في إرسال سيدنا محمد ﷺ إليها، ولا يخفى ما يوجبه ذلك على أهل مكة- الذين هم امتداد ذرية إبراهيم واسماعيل- من معرفة هذا الأمر وتقديره، باتباع النبي الذي هو دعوة إبراهيم عليه السلام.

وأخلص مما سبق إلى:

أن حرص الخليل وولده اسماعيل على ذريتهما دفعهما إلى اغتنام العمل الصالح الذي يقومان به في التضرع إلى الله تعالى بما سبق بيان أسراره، وأن تمهيدهما للأدعية بأسلوب النداء المشعر بالتوسل والاستعطاف، ثم التعبير بأسلوب الأمر المقصود منه التضرع والرجاء، مع تذييل كل دعاء بأسلوب القصر المقرر قدرة الله تعالى على تحقيق ما يطلبانه، كلها أساليب تضافرت وتعانقت في بيان ما يقصدان إليه، مع الشعور بأملهما في تحقيقه.

*****

المبحث الثاني

أسرار التعبير القرآني عن دعاء الخليل لمكة المكرمة في سورة "إبراهيم"

قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"**(إبراهيم 35-41)**

وهو موضع يأتي في سياق تسجيل القرآن على أهل مكة، الذين أنعم الله تعالى عليهم بسكنى البلد الحرام، وأكرمهم بجوار بيته العتيق، ثم هم يتحولون من الإيمان إلى الكفر، ومن عبادة الواحد الديان إلى عبادة الأصنام، وفيه يُصَوَّر أبوهم إبراهيم- عليه السلام- في مشهد الخاشع المتضرع المبتهل إلى الله تعالى، الراجي منه:

- أن يجعل البلد الحرام آمنا طيلة الدهر.
- أن يُجَنِّبَه وبنيه عبادةَ الأصنام.
- أن يرشد الناسَ إلى عمارة هذا البلد والإقامة فيه.
- أن يجعله وذريته من مقيمي الصلاة، وأن يمُنَّ عليهم جميعا بالمغفرة والفوز في الدنيا والآخرة.

وهذا المشهد يعيد إلى أذهان المخاطبين والقارئين الحال التي كانت عليها تلك البقعة من قفر وجدب، قبل أن يدعو لها إبراهيم- عليه السلام- بهذا الدعاء، الذي استجابه الله تعالى، وأنعم عليهم بما يرفلون فيه من أمن وخير وكثرة، والغرض منه أن يُرَد الجاحدون من أبناء الخليل وذريته إلى الاعتراف، والكافرون إلى الشكر، والغافلون إلى الذكر، والشاردون إلى سيرة أبيهم لعلهم بها يقتدون، و بنورها يهتدون.

والواو في أوله لعطفه على قوله تعالى "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا" (إبراهيم 28)، فإنهم كما بدلوا نعمة الله كفرا أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم- عليه السلام- وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلالة، وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفرًا بمُفيض تلك النعم"[1].

و"إذ" تعود بأهل مكة بخاصة، وبذرية إبراهيم بعامة إلى زمن هذا الابتهال، ليعيشوه ويتصوروه، ويستشعروا من خلاله ما كان يملأ صدر أبيهم إبراهيم من حب لهم، وحرص عليهم، ثم هم يقابلون حرصه بإنكار، ودعاءه لهم بالعزوف عن ملته، والإعراض عن اتباع الرسول السائر على منهجه.

وابتدأ الخليل دعاءه بنداء ربه في قوله "رَبِّ"؛ لما في النداء من معاني الجؤار، والالتجاء، والإعراب عن عظم الحاجة، وإظهار شدة الضعف بين يدي ربه القادر على تحقيق مطالبه، التي سبق بيانها، والتي تبدو في نظره كأنها معجزات، لا قدرة لأحد على تحقيها سواه.

(1) التحرير والتنوير 12/ 260.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

وآثر النداء بـ "رَبِّ" جريا على عادته في كل ابتهالاته؛ ولمناسبة هذا الاسم الجليل لما يدعو به من أمور فيها صلاحه، وصلاح ذريته، وصلاح البلد الحرام، وصلاح أهله وساكنيه، وفي حذفه حرف النداء وإضافة الاسم الجليل إلى ضميره إعراب عن شعوره بقرب الله سبحانه وتعالى منه، واطلاعه على ما يغلي به صدره، وتتوق إليه نفسه، وهذا من شأنه أن يوجد عنده نوعا من الثقة الشديدة في إجابة ربه دعاءه، وإسعاده بتحقيق مطالبه، وقضاء حاجاته.

وقوله "اجْعَلْ" فعل أمر، أُسند إلى ضمير المولى سبحانه وتعالى، وغرضه منه التضرع والتوسل إلى من بيده القدرة المطلقة، والإرادة النافذة التي لا يعجزها شيء، ذلك أن تحويل مكة مما هي عليه من خوف إلى بلد آمن يبدو أمرا صعبا، ولا يقدر عليه إلا الله جل في علاه، ومن ثم كان الفعل "اجْعَلْ" المسند إلى ضميره جل شأنه ناطقا أيضا- من خلال جرسه ومعناه الدال على التصيير والتحويل[1]- بثقة الخليل في قدرته تعالى على جعله كذلك.

وعبر عن "مكة" بقوله "الْبَلَدَ" المعرّف بأل التي للعهد، والمسبوق باسم الإشارة "هَذَا" الدالين على تحديد المشار إليه تحديدا دقيقا، وحضوره في الذهن حضورا يغني عن الإشارة إليه باليد- كما سبق بيانه- مما يدل على انشغال إبراهيم- عليه السلام- بهذا المكان انشغالا يملأ نفسه، ويسيطر على كيانه، لإدراكه أن ذريته ستعيش على أرضه، وتغدو فيه وتروح.

يقول صاحب الكشاف: "فإن قلت: أي فرق بين قوله "اجْعَلْ هذا بَلَدًا آمِنًا"، وبين قوله "اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا"، قلت: قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمنًا"[2] يؤيده التعبير عنه بـ "وَادٍ" والذي سيتم بيان ما فيه بعد قليل.

وتعريف "الْبَلَدَ" يدل كذلك على أن هذا الدعاء كان بعد الدعاء الذي حكته سورة البقرة، ذلك أن التنكير في الموضع السابق يدل على أن هذا البلد لمّا يكن معروفا، وأن مقومات البلد لمّا تكن متوفرة فيه، أما التعريف هنا فيدل دلالة واضحة على أنه صار بلدا تتوفر فيه كل المقومات، يؤيده الدعاء له بعد طلب الأمن هناك برزق أهله من الثمرات، وغيرها من أسباب الحياة التي تجعله "بلدا" أهلا للاستقرار والإقامة، أما هنا فيلحظ الدعاء له بعد طلب الأمن بتجنيبه وبنيه عبادة الأصنام، مما يدل على أن هذا المكان صار آهلا بالناس، كما توفرت فيه موارد الرزق، التي يصرف الانشغال بها كثيرا من الناس عن عبادة المتكفل بحصولها.

وقوله "آمِنًا" يشير بجرسه- المبدوء بألف المد والمنتهي به- إلى رغبته في أن يصل هذا البلد في الأمن درجةً لا يصل إليه فيها غيره من البلدان، ويدل بما فيه من مجاز عقلي- سبق بيانه- على رغبته في أن تعم نعمة الأمن كل شيء في هذا البلد، سواء في ذلك البشر وغير البشر، ولم يسأل له غير الأمن، لأن ما سواه لا يعد شيئا بدونه، ولأنه إذا حصل تحقق كل شيء تبعا له.

ثم دعا إبراهيم لأبنائه وذريته بقوله "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

وجاء به معطوفا على دعائه لمكة، لأنها المكان الذي سيترك فيه زوجه وولده، كما توضح الآيات، ولأن من سيأتي من نسله سيعيش فيه، ومن ثم فإن العلاقة بينهما واضحة، وفيه دليل على أن إبراهيم- عليه السلام- دعا لسكان هذا البلد بأمنين، أحدهما: الأمن المكاني، والآخر: الأمن العقدي، ذلك "أنه لما دعا بالأمن من فساد الأموال والأبدان، أتبعه بالدعاء بالأمن من فساد الأديان"[3] وقدّم المكاني لوجوده أولًا، أو لأن حصوله مُعِين على حصول الثاني، ويضيف ابن عاشور "لا جرم سأل أن يكون ذلك بلدا آمنا حتى يسلم ساكنوه، وحتى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقّنوه أصول التوحيد"[4].

و"قوله "اجْنُبْنِي" فعل أمر من الثلاثي المجرد، يقال: جنبه الشيء، إذا جعله جانبا عنه، أي باعده عنه، ... وأراد بـ بنيه: أبناء صلبه... أو أراد جميع نسله تعميما في الخير، فاستجيب له في بعضهم، والأصنام: جمع صنم، وهو

---

(1) ينظر مختار الصحاح - مادة جعل.
(2) الكشاف 2/ 557.
(3) نظم الدرر 4/ 190.
(4) التحرير والتنوير 12/ 261.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

صورة أو حجارة أو بناء يُتخذ معبودا ويُدعى إلها، وأراد إبراهيم- عليه السلام- مثل وَدّ وسُواع ويَغوث ويَعوق ونَسر، أصنام قوم نوح، ومثل الأصنام التي عبدها قوم إبراهيم"[1].

ولا يخفى أن غرضه من الأمر بتجنيبه عبادة الأصنام هو التضرع إلى الله تعالى بأن يديم عليه نعمة توحيده وعبادته، وأن يبسط عليه كنفه ورعايته لئلا يزيغ عنها، لما تحقق له بها من عزٍّ، ولما وجده فيها من الهداية والحلاوة، وفيه أيضا دعوة إلى الاقتداء بإبراهيم في الخوف وعدم العجب، وطلب حسن الخاتمة.

وعطفُه بنيه على ضميره المنصوب في الفعل مع إضافتهم إلى ضميره "وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ" يوضح مدى حرصه على ذريته، ويبرز مدى انشغاله بهم، وإشفاقه عليهم، وعبر عن المفعول الثاني بالمضارع المسبوق بأنْ "أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ" دون المصدر الصريح، لما يختص به المضارع من إفادة التجدد، الدال هنا على أمله في أن يكون التحصين من عبادة الأصنام حاصلا على مدار الزمن، ممتدا مع تتابع الأجيال، وألا تحصل عبادة الأصنام من أحدهم في أي وقت من الأوقات.

وفي حكاية دعائه هذا تعريض بالمشركين، الذين أنعم الله تعالى عليهم بسكنى البلد الذي أمّنه الله تعالى؛ استجابةً لدعوة أبيهم إبراهيم، ثم هم يحيدون عن ملته، فيتحولون من الإيمان إلى الكفر، ومن عبادة الله تعالى إلى عبادة الأحجار، وفيه أيضا دعوة قرآنية لهم كي يعودوا إلى منهجه، ويسيروا على طريقته، بترك عبادة الأصنام، وعبادة الله الواحد الديان.

يقول أبو حيان "ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة الله كفرا، وجعلوا لله أندادا وهم قريش ومن تابعهم من العرب ... وكان من نعم الله عليهم إسكانه إياهم حرمه، أردف ذلك بذكر أصلهم "إبراهيم"، وأنه صلوات الله عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأن يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليتقربوا إليه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادات، وهي الصلاة، لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام"[2].

وقوله "رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" بمثابة التعليل لابتهاله بتجنيبه وبنيه عبادة الأصنام، ولذا فصل عنه كما يفصل السبب عن المسبب، فيما يعرف بشبه كمال الاتصال، الذي تتواصل فيه المعاني "من طريق أن الأولى تتولد منها الثانية، وكأنها أصل ينبثق منه فرع"[3] وبه تبدو كل جملة موضوعة وضعا لا تحتاج فيه إلى ما قبلها، آتية مأتى ما ليس قبله كلام[4]، وهي مع هذا الوضع مستقلة موصولة بالتي قبلها من حيث المعنى وصلا قويا، لا تحتاج معه إلى رابط[5]، هذا بجانب ما له من تأثير شديد في تحريك نفوس السامعين، وإثارة أذهانهم إلى فهم مقاصد الكلام وإدراك مراميه، التي يسعى النظم الحكيم إلى الحث عليها أو ترسيخها، كما أنه يبرهن على قوة الأسلوب وتناسق عباراته.

وفيه أعاد نداء المولى سبحانه وتعالى بقوله "رَبِّ"- مع قرب العهد به- استعطافا لربه، وإظهارا للاهتمام بطلبه، وجاء بجملة "إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ" ليكشف بها سبب طلبه، وفيها أسند فعل الإضلال إلى ضمير الأصنام مؤكدا بـ "إنّ" على سبيل المجاز المرسل، لعلاقة السببية، والمعنى: كنّ سببا لإضلال كثير من الناس.

أو على سبيل الاستعارة المكنية التي تخلع على تلك الأصنام نوعا من الحياة، وتجعلها تبدو في صورة شيءٍ حيٍّ، يبهر الناس، ويجذبهم إليه، ويصرفهم عن عبادة ربهم إلى عبادته، يعضد ذلك ويقويه تأنيث الضمير العائد إلى الأصنام بعد "إنَّ" "إِنَّهُنَّ"، وتأنيث الضمير المسند إليه فعل الإضلال "أَضْلَلْنَ".

وأرى أن الاستعارة المكنية أكثر اتساقا مع ما يقصد إليه السياق من إبراز شفقة إبراهيم، وحرصه على ذريته، فكأني به يلتمس- من خلالها- العذرَ لضعفهم أمام المغريات والضغوطات التي جعلتهم يضعفون أمام الأصنام ولا يقاومون عبادتها، يقويه التعبير عن المفعول بقوله "كَثِيرًا" مع تعليقه بلفظ "النَّاسِ"؛ الدالين على أن الافتتان

([1]) السابق.
([2]) البحر المحيط 6/ 444.
([3]) دلالات التراكيب/ 309.
([4]) دلائل الإعجاز/ 236 بتصرف.
([5]) دلالات التراكيب/ 309.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

بالأصنام ليس مقصورا عليهم، بل سبقهم إليه كثير من ذوي القدر والمنزلة، الذين لا يتوقع حصوله منهم، يقول الراغب: "و"النَّاسِ" قد يذكر ويراد به: الفضلاء، دون من يتناوله اسم الناس، تجوّزا"[1].

أما قوله "فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" فله من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- تصديرُه بالفاء التي تفيد التسبب، فيه إلماح إلى أن ما يطلبه من ثواب للموحدين، ومغفرة ورحمة للعاصين مُسبَّبٌ عن ضعفهم، وفتنة الأصنام لهم.

ثانيا- تكوُّنه من جملتين تعتمد كل واحدة منهما على أسلوب الشرط، الذي يزيد المعنى بيانا وإيضاحا، ويزيد من تطلع القارئ وإثارته إلى معرفة ما يترتب على كل حالة من الحالتين، وذلك لاعتماده على جملتين إحداهما: للفعل، والأخرى: للجزاء، في أسلوب تقابلي، قُدّم فيه المتبعون على العصاة؛ لدفع المخاطبين من ذرية إبراهيم إلى أن يكونوا من أتباعه، وألا يحيدوا عن ملته.

ثالثا- تعديةُ فعل الاتّباع، وفعلِ العصيان إلى ضمير إبراهيم عليه السلام "تَبِعَنِي - عَصَانِي" فيه إثارة لمن يسمع دعاءه من ذريته إلى بره، وتنفيذ وصيته، وإجابة دعوته، لما يُبرزه من أن الاتباع فيه ارتباط بالجَدِّ، واتصال بالأصل، وأن العصيان فيه نوع من العقوق له، وإعلانٌ للانفصال عنه، وعدم الارتباط به، وهو (أي العصيان) فكرة تبدو مزدراةً مرفوضة، بعد كل ما أظهره النظم الحكيم من حرص الخليل وشفقته وانشغاله بذريته.

رابعا- اختلافُ جواب الشرط في الجملتين تبعا لاختلاف الفعل مؤذنٌ بمدح النوع الأول، وذم النوع الثاني وعدم الرضا عن فعله، فقوله في جواب الجملة الأولى "فَإِنَّهُ مِنِّي"، والذي أعيد فيه الضمير العائد على إبراهيم مجرورا بـ "مِن" التي تفيد التبعيض فيه إشارة إلى أن من يتبع إبراهيم، ويسير على ملته في تجنب عبادة الأصنام، وما يشابهها من ألوان الشرك بالله تعالى يتصلُ به اتصال الجزء بالكل، وينبثق عنه انبثاق الفرع عن الأصل، بجانب دلالته على أنه سيحصل على الثواب الذي سيثاب به إبراهيم عليه السلام.

وقوله "فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" في جواب الجملة الثانية دليل على أن عصيان الخليل- بعبادة الأصنام أو غيرها- ذنب عظيم، يحتاج إلى الابتهال إلى الله تعالى بطلب المغفرة والرحمة لمن اقترفه، وفيه إلماح إلى أن أمره مفوض إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، إذ المعنى: "ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك"[2].

خامسا- قوله "فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" يعد- بجانب ما سبق- دليلا على غلبة الحلم على إبراهيم- عليه السلام- وخشيته من استئصال عصاة ذريته، حيث بدأه بالفاء التي تفيد التسبب، وأكده بإنّ، وجاء بوصفي المغفرة والرحمة على صيغتي المبالغة، مع تقديم المغفرة وتأخير الرحمة لكون الثانية مترتبة على الأولى، وأسندهما إلى ضمير ربه عزوجل بصيغة الخطاب؛ للإلماح إلى يقينه في اتصاف ربه سبحانه وتعالى بواسع المغفرة وواسع الرحمة، المقتضيتين الإمهال، وعدم الاستئصال.

وفيه كذلك تعريض بالمشركين من العرب بأنهم لم يبروا أباهم إبراهيم عليه السلام، ولم يتبعوا ملته، وعاندوا الرسول السائر على منهجه، وفي الوقت ذاته تهديدٌ لهم بتعرضهم للاستئصال إن هم استمروا على ذلك.

ثم يمضي إبراهيم- عليه السلام- في دعائه فيذكر إسكانه بعض أبنائه بذلك الوادي المُجدب المُقفر المُجاور للبيت المُحرم، ويذكر الوظيفة التي أسكنهم فيه من أجلها "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ".

وفي إعادة نداء "الرَّب" سبحانه وتعالى في صدر هذا الابتهال، وعدم الاكتفاء بذكره سابقا ما يشعر بشدة إشفاقه وخوفه على أهله مِن تركِهم في ذلك المكان الموحش، كما أنه يكشف عن عجزه وعجز ذريته وعجز البشرية كلها عن تحويل هذا الوادي إلى النقيض مما هو عليه، مما يجعل النداء هنا مُشعًّا بالاستعطافِ، وإظهارِ التذلل، وشدةِ الاهتمام بما جاء بعده، ورغبتِه القوية في إجابته وتحقيقه.

وأضاف الاسم الجليل إلى ضمير الجمع "رَبَّنَا" خلافا لما دعا به فيما سبق من هذا المشهد، لأن الدعاء هنا يشمله، ويشمل من ترك من ذريته في الوادي الذي يتحدث عنه، والمراد بهم: اسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام، كما ورد في صحيح البخاري[3].

---

(1) المفردات- مادة نوس.
(2) التحرير والتنوير 12/ 262.
(3) ينظر صحيح البخاري- كتاب بدء الوحي- برقم 3364.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

وقوله "إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ" بمثابة التمهيد والتوطئة لدعائه بإعمار المكان الذي ترك فيه زوجه وولده، وفيه من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- ذِكر الضمير العائد إلى الخليل ثلاث مرات، أولاها: في "إِنِّي"، والثانية: في "أَسْكَنْتُ"، والأخرى: في "ذُرِّيَّتِي" يشع بالتوسل، والرجاء، وطلب الإشفاق لما يعتريه من مشاعر بشرية، لا يختلف فيها عن غيره من الآباء والأزواج، يؤازر ذلك ياء المتكلم في "إِنِّي"، و "ذُرِّيَّتِي" برسمها الملمح إلى مدى الانكسار الذي يعتريه وهو يدعو ربه ومولاه.

ثانيا- أوثر التعبير بالفعل "أَسْكَنْتُ" دون "تركت" أو غيره؛ لما فيه من التناغم بين المعني والجرس، ذلك أن سكون فائه ولامه- وهما السين والنون- يومئ إلى عزمه استقرار ذريته في ذلك المكان، وعدم الرحيل عنه، يقول الراغب "السُّكُونُ: ثبوت الشيء بعد تحرّك، ويستعمل في الاستيطان، نحو: سَكَنَ فلان مكان كذا، أي: استوطنه"[1]، يقويه تعدية الفعل إلى الوادي بالباء الدالة على الإلصاق، كما أن اشتماله على حرف السين، الذي يتسم بالهمس، يفهم منه الإشارة إلى ضعف مَن ترك مِن ذريته، وشدة احتياجهم إلى الرعاية والمعاونة.

ثالثا- عبّر عن مكة بـ "وَادٍ" نكرةً للإلماح إلى كونه مجهولا غير معروف، إذ ليس فيه أحد غير زوجه وولده، ووصفه بقوله "غَيْرِ ذِي زَرْعٍ" للإشارة إلى خلوه من الماء والزرع، اللذين يُعتمد عليهما في السكن والمعيشة، كما وصفه بقوله "عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ" زيادة في الاستعطاف والإثارة إلى إجابة دعائه، وتحقيق مطلبه، بجعل مكة بلدا آمنا، وتوجيه الناس إلى الاستقرار فيه وعدم الرحيل عنه، فيحصل بذلك أمران:-

أحدهما- إعمار بيت الله الحرام، وتحقيق كونه مثابة للناس وأمنا.

والآخر- إيناس من ترك من ذريته عنده، وتأمينهم فيه، لما لهذا البيت من حرمٍ لا يؤذى فيه أحد.

والتعبير بجملته يرسم للمخاطبين والقارئين صورة هذا الوادي عند دعاء إبراهيم- عليه السلام- لتتم مقارنتها بالصورة التي هو عليها عند نزول الآيات، وعند تلاوتها في أي وقت، فيحصل المقصود باتباع ملته في توحيد الله تعالى، والتخلي عن عبادة الأصنام، والاجتهاد في حفظ النعم التي مَنّ اللهُ تعالى بها على مجاوري هذا البيت، وسكان البلد الحرام.

وقوله "رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"، يبين الغرض الذي أسكنهم في هذا المكان المقفر المجدب من أجله، وفيه من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- علق قوله "لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ" بالفعل "أَسْكَنْتُ"؛ لبيان أن غرضه من إسكانهم في هذا المكان- مع ما فيه من جدب ووحشة- أن يعمروا بيت الله الحرام بإقامة الصلاة فيه، والتعبيرُ بالمضارع إشارة إلى أنها إقامة متجددة، لا انقطاع فيها، ولا فُتُورَعنها، واقتصر على الصلاة لمزيد فضلها، ولأن من أقامها وداوم عليها كان على غيرها من العبادات والشعائر أدوم.

ثانيا- كرر النداء بـ "رَبَّنَا" وجاء به متوسطا بين الفعل ومتعلقه، لما فيه من معاني الجؤار، والالتجاء، وإظهار التذلل، والرغبة في الإجابة، وغير ذلك مما يسيطر على من ترك أحدا من ذريته في مكان بالصفة التي ذكرها، وأتى بضمير جماعة المتكلمين؛ لأنه يدعو بالأصالة عن نفسه، وبالنيابة عمّن ترك من ذريته.

ثالثا- جاء بقوله "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" مبدوءا بالفاء التي تفيد التسبب، للإشارة إلى أن ما يطلبه من أنس وطعام لذريته مسبب عن إسكانهم بواد مقفر مجدب، والأمر "اجْعَلْ" فيه غرضُه التوسل والرجاء، وفي تعديته إلى "أَفْئِدَةً" بمعنى: قلوب، إشارة إلى رغبته في أن يكون مسير الناس إليهم، وإسراعهم نحوهم، واجتماعهم عند البيت الحرام معهم عن شوق ومحبة، لا عن شيء آخر، ومن ثم يحصل بجانب الأنس السلامةُ مما يحصل بين المجتمعين أجسادا المفترقين قلوبا، وتلك لفتة حانية من إبراهيم الحليم، يقويها وصف "أَفْئِدَةً" بقوله "مِنَ النَّاسِ" مستعملا حرف الجر "مِنَ" الدال على التبعيض، بما فيه من إشارة إلى ضراعته باختيار من يأتي إليهم وانتقائه.

---

(1) المفردات - مادة سكن.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024 العدد (107) يونيو 2024

ويمكن أن تكون "مِنْ" بيانة لا تبعيضية، والمعنى: "فاجعل أناسا يقصدونهم بحبات قلوبهم، وكأن القلوب هي التي تسير إليهم، وترغب في الاتجاه نحوهم"[1]، يقويه التعبير بالفعل "تَهْوِي"، الدال على السرعة، والمسند إلى ضمير الأفئدة على سبيل الاستعارة المكنية، التي تجعل من القلوب كائنا حيا، يبصر ويعقل، ويميل إلى ذلك المكان، ويهفو إليه، ويسرع نحوه، ويألف من فيه، "أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ" يقول: خذ بقلوب الناس إليهم، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة"[2].

وللحرف "مِنْ" في هذا التعبير موضع حسن، ذلك أن حذفه يترتب عليه أن يزاحمهم عند البيت الحرام كلُّ الناس، ومن ثم يكدُر عيشُهم فيه، "قال مجاهد: لو قيل: أَفئدة الناس، لزحمتكم عليه فارس والروم، وقيل: لو لم يقل "مِنْ" لازدحموا عليه حتى الروم والترك والهند"[3].

ولما كان الطعام من متطلبات استمرار الاجتماع وعدم الانفضاض جاء بقوله "وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"، معبرا فيه بفعل الأمر، مع تعديته إلى ضمير الجمع "ارْزُقْهُمْ" ليشمل رجاؤه كل من تركهم في هذا المكان، وكل من يسكنه، أو يأتي إليه، كما جاء بالمفعول الثاني "الثَّمَرَاتِ" جمعا مجرورا بـ "مِنْ" رغبة في أن تزخر هذه البقعة، وينعم ساكنوها بكل أنواع الثمار، وألا يحرموا من شيء يتواجد أو يزرع في غيرها، "وفي هذا الدعاء فائدتان، إحداهما: ميل الناس إلى تلك البلدة للنسك والطاعة، والأخرى: اتساع معايشهم وكثرة أرزاقهم"[4].

يقول أبو حيان: "ولا جرم فقد أجاب الله تعالى دعوة إبراهيم، فجعله حرما آمنا، يُجبى إليه ثمرات كل شيء ... ثم فضّله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف، وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب لا ترى الأعجوبة التي يريكها الله بواد غير ذي زرع، وهي: اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب"[5].

وقوله "لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" تعليل لما طلبه من الإيناس وسعة الرزق، وفي داخله دعاء لهم، حيث جاء فيه بحرف الرجاء والفعل المضارع، أملا في أن يكون الإنعام عليهم سببا في جعلهم من ذوي الشكر المتجدد مع كل نعمة يخصون بها، وكل ثمرة يرزقونها.

وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام .. وأنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله، ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويّها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض .. إنه شكر الله المنعم الوهاب، وفي ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة في موقف قريش جيرة البيت المحرم .. فلا صلاة قائمة لله، ولا شكر بعد استجابة الدعاء، وهويّ القلوب والثمرات! [6].

ثم أتبع إبراهيم تلك الأدعية بقوله "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"؛ ليقوّي به ما سبق من المطالب والابتهالات، من خلال ما فيه من الخصائص التعبيرية التالية:

أولا: تصديره بنداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية "رَبَّنَا"، للإشارة إلى عظيم استعطافه، وشدة إيمانه بعلم الله تعالى به، واطلاعه على كل ما يدور في داخله، ويعتمل في نفسه، لما في هذا الاسم من معني الخلق والإيجاد المستلزم العلم بما يحتاجه المخلوق، ومعنى التربية المستلزم العلم بما يصلح المُربَّى، وما له تأثير في مسيرته.

ثانيا: تعبيره عن إحاطة الله تعالى بكل ما في قلبه من رغبات، وجميع ما تتمناه نفسه من حاجات، بالمضارع "تَعْلَمُ" الذي يفيد يقينه بتجدد علم الله تعالى بما يتجدد عند عباده من إخفاء أو إعلان، وتقوية ذلك من خلال تأكيده بـ "إنّ" والجملة الاسمية.

ثالثا: الطباق بين الفعلين "نُخْفِي" و "نُعْلِنُ"، مع مجيء كل واحد منهما صلة لاسم الموصول "مَا" الدال بجرسه ومعناه على اتساع علم الله تعالى وإحاطته بكل المخفي مهما كان عميقا، وجميع المعلن مهما كان.

([1]) التحرير والتنوير 12/ 263- بتصرف.
([2]) الدر المنثور في التفسير بالمأثور 8/ 558.
([3]) الكشاف 2/ 559.
([4]) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان 4/ 200.
([5]) البحر المحيط 6/ 448.
([6]) في ظلال القرآن 4/ 2110.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

ولا يخفى ما في تقديم فعل الإخفاء في هذا السياق من إلماح إلى اطلاع الله تعالى على نيته، وعلمه بالبواعث التي تقف وراء إلحاحه من أجل إجابة دعوته، يقول الشوكاني "ما نكتمه وما نظهره، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سيّان، قيل: والمراد هنا بـ "مَا نُخْفِي" ما يقابل "مَا نُعْلِن"، فالمعنى: ما نظهره وما لا نظهره، وقدّم "مَا نُخْفِي" على "مَا نُعْلِنُ"، للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه.

وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك...والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكأن المعنى: أن الله سبحانه يعلم كل ما يظهره العباد، وكل ما لا يظهرونه"[1].

رابعا: المجيء بقوله "وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"، بما فيه من التعبير بالمضارع منفيا بـ"ما" مع إدخال "مِن" المفيدة للتأكيد[2] على الفاعل"شَيء"، وتعليقه بـ"الأرض" معطوفا عليها "السماء" مع إعادة حرف الجر مسبوقا بحرف النفي المختوم بألف الإطلاق "وَلَا"، لإفادة العموم والشمول، واقتصر على ذكر "الأرض والسماء" لأنهما المشاهدتان للعباد، وإلّا فإن علم الله سبحانه وتعالى محيط بجميع ما هو داخل في العالم، وجميع ما هو خارج عنه، لا تخفى عليه منه خافية، وقدم "الْأَرْض" لاعتبار قربها من المخلوقين، ولأنهم أكثر اطلاعا عليها، وربما يظنون أنهم أعلم بما فيها.

والجملة من باب ذكر العام بعد الخاص، جاء بها إبراهيم[3] ليكون اعترافه باطلاع ربه عليه، وعلى البواعث التي تدفعه إلى الإلحاح في تضرعه، والتذلل في مناجاته حاصلا مرتين، إحداهما على وجه الخصوص في قوله "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ"، والأخرى على وجه العموم في الجملة التي بين أيدينا، ولا يخفى ما في ذكر العام بعد الخاص من تأكيد معنى العام، وتنبيه إليه، واعتراف به، بجانب ما فيه أيضا هنا من رعاية لمقام العبودية، الذي هو فيه، وتقدير لمقام الألوهية، الذي يخاطب به الله سبحانه وتعالى.

يقويه ما فيه من انتقال التعبيرعن المولى سبحانه وتعالى بضمير الخطاب إلى التعبير عنه عزوجل بالاسم الأعظم الجامع لكل الصفات "اللَّه" على سبيل الالتفات، تربية للمهابة والتعظيم، وإشعارا بعلة الحُكمِ، وإيذانا بعمومه؛ لأنه ليس شأنا خاصا بإبراهيم وذريته، بل هو شامل لكل الشؤون، فناسب ذكر الله عزوجل بالاسم العلم.

ثم ذكر إبراهيم جانبا من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليه، ليكون ذلك سبيلا إلى شكر الله سبحانه عليها، فقال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ".

وبدأ بالشكر مستعملا أسلوب القصر الذي يفيد تأكيد المعنى بطريقين: أحدهما: إثبات المعني للمقصور عليه، والآخر: نفيه عما سواه تحقيقا أو إضافة، فقال "الْحَمْدُ لِلَّهِ" معبرا عن المولى سبحانه وتعالى باسم الجلالة العلم، الجامع لصفات الألوهية والربوبية، وجاء باسم الموصول "الَّذِي" ليتسنى له- من خلال جملة الصلة- ذكر النعم التي أنعم بها عليه، ثم قال "وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ" مستعملا الفعل "وَهَبَ" للإشارة إلى أن ذلك كان فضلا من الله تعالى وتكرما منه عليه، إذ الهبة هي: العَطِيَّة الخاليةُ عن الأَعْواضِ والأَغْراض[4]، وجاء بوصف "الْكِبَرِ" مجرورا بالحرف المفيد للاستعلاء للإلماح إلى تمكنه منه، مما يدل على أن مجيء الذرية في ذلك السن أمر من الصعوبة بمكان، و أن حصوله بعد حرمان أمر موجب لشكر من تفضل بهبته مع عدم وجود الأسباب.

وذِكْرُه "إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ" إشارة إلى عظيم فضل الله عليه، حيث أنعم عليه بولدين، وليس بولد واحد كما كان يأمل ويرجو، مما يدل على اعترافه بفضله، وامتنانه لعظيم عطائه.

وقوله "إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ" تمهيد لما يأتي بعده من دعاء وتضرع، وهو في الوقت نفسه تذييل لجملة الحمد، حيث إنه يؤكد استحقاقه سبحانه وتعالى الحمد والشكر من عباده بعامة، ومن إبراهيم بخاصة، لما يتفضل به عليهم من إجابة أدعيتهم، وتحقيق مطالبهم.

([1]) فتح القدير 4/ 154.
([2]) يراجع الجنى الداني 1/ 51.
([3]) بين العلماء خلاف في هذه الجملة: "إذ يرى جمهور المفسرين أنها من كلام الله سبحانه تصديقًا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه، وقيل: يحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم؛ تحقيقاً لقوله الأوّل، وتعميما بعد التخصيص" وهو ما أميل إليه؛ لما تم بيانه.. يراجع فتح القدير4/ 154 وما بعدها.
([4]) لسان العرب – مادة وهب.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

وفيه عبر بقوله "سَمِيعُ الدُّعَاءِ" بصيغة المبالغة، للإلماح إلى أن طول الأمد وعدم الإجابة الفورية للداعين لا يعني عدم سماعه سبحانه وتعالى أدعيتهم، أو نسيانه- حاشاه- مطالبهم، ولكنه نوع من الترتيب والتخيُّر لهم، إذ ينعم عليهم بإجابة دعائهم في وقت يكونون أحوج فيه إلى ما دعوا به، وقتٍ يكون فرحهم به أضعاف ما لو أجابهم قبله، يقويه تأكيد الكلام بإن واللام والجملة الاسمية، مما يدل على أن سماع الدعاء سنتُه المستمرة التي لا تنقطع ولا تتوقف.

كما عبر الخليل عن "الله" تعالى بعنوان الربوبية مضافا إلى ضميره، وليس إلى ضمير الجمع "رَبِّي" لكون الدعاء بحصول الولد والذرية شأنا خاصا، كان قد اتجه به إلى ربه ومولاه، فيما يحكيه القرآن من دعائه "وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ" (الصافات 99-100)، وفيه دلالة على إقراره بفضل ربه عليه، وعظيم هبته له.

وفي إيراد شكر الخليل نِعْمَةَ ربه توجيهٌ للمخاطبين من ذريته إلى أن يقتدوا به في الإقرار بنعم الله، والقيام بشكره تعالى عليها، باتباع منهجه، والإيمان بالرسول الداعي إلى توحيده، والإخلاص في عبادته، والتضرع والتوسل إليه سبحانه في كل ما يحتاجونه، ويأتي على رأسه ما ابتهل به أبوهم إبراهيم من التوفيق إلى إقامة الصلاة، وطلب المغفرة له ولجميع المؤمنين.

ثم ختم إبراهيم عليه السلام هذا المشهد بالأدعية التي يجب أن تكون على رأس ابتهالات المبتهلين، وأولَ ضراعات المتضرعين، والتي يحكيها القرآن في قوله تعالى: "رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"، وفيها من الخصائص البلاغية ما يلي:

أولا- تكراره نداء المولى سبحانه وتعالى بعنوان الربوبية قبل كل دعاء منها، لما في التكرار من إظهار زيادة الضراعة، وإبراز شدة الالتجاء، وبيان أهمية كل مطلب.

ثانيا- البدء بطلب الديمومة على إقامة الصلاة "اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ"، والتثنية بطلب تقبل الدعاء "رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ"، والانتهاء بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين، ولعل تقديم الابتهال بالتوفيق إلى المداومة على إقامة الصلاة على غيره من باب تقديم السبب على المسبب، أو من باب تقديم طلب التوفيق في العمل على طلب الأجر والجزاء، وفيه من الأدب ما لا يخفى، ولعل اقتصاره على هذه المطالب الثلاثة في ختام هذا المشهد راجع إلى كونها سبب السعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة، وإلى كونها الثمرة المرجوة والمقصد الرئيس من دعائه.

ثالثا- إبراز انشغال إبراهيم بذريته- كما هو شأنه دائما- ففي طلبه الأول قال "وَمِنْ ذُرِّيَّتِي"، وفي طلبه الثاني قال "رَبَّنَا" بإضافة الاسم الجليل إلى ضمير الجماعة، وفي طلبه الأخير قال "وَلِلْمُؤْمِنِينَ"، مما يدل على المحبة والانشغال، ويدعو المخاطبين من الذرية إلى رد ذلك الجميل من أبيهم إبراهيم بما يجب أن يكون.

وبعد هذا البيان:

يتضح أن قصد النظم الحكيم إلى تنبيه أهل مكة وحثِّهم على شكر نعم الله تعالى عليهم كان وراء حكايته ضراعة الخليل بما سبق بيان أسراره.

كما يتبين أن استعظام إبراهيم لما يطلبه، ورغبته الصادقة في تحويل مكة مما كانت عليه إلى ما صارت إليه عند نزول الوحي على رسول الله ﷺ كانا وراء تعبيره بما يلي:

- نداء المولى سبحانه وتعالى بوصف الربوبية، والذي تكرر في هذا المشهد سبع مرات.
- الأمر المقصود منه التضرع، والذي تنوع وشمل كذلك سبعة مطالب.
- التعليل للأمر بجمل تؤكد مدى الحاجة إلى إجابة هذه المطالب.
- التذييل المقرر قدرة الله تعالى على تحقيقها.
- الطباق الدال على إحاطة الله تعالى واطّلاعه على كل ما يحتاجه الخليل مما ذكره في دعائه، ومما لم يذكره.

شكر وتقدير

تم دعم هذا المشروع بواسطة عمادة البحث العلمي بجامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز من خلال المقترح البحثي رقم 25438/02/2023

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

الخاتمة

كشفت هذه الدراسة التي تكونت من مبحثين ومقدمة عن النتائج التالية:

أولا- أن المقصد الرئيس من دعاء الخليل لمكة المكرمة في الموضعين يتمثل فيما يلي:-

- أن تكون هذه البقعة وطنا آمنا لأهله وبنيه، ولمن يعيش من نسله فيه.
- أن تكون كذلك وطنا آمنا لكل من يأوي إليه أويقصده لنُسُك أو عمل أو إقامة من البشر أجمعين.
- أن يحب الناس هذا البلد، ويحبوا المجيء إليه والتردد عليه، وأن يحصل بينهم وبينه نوع من الألفة والمودة.
- أن يكون رزق من عاش في مكة وافرا متنوعا، غير مقطوع ولا ممنوع.
- أن يديم الله تعالى عليه وعلى ذريته و على ساكني هذا البلد نعمة التوحيد وأن يجنبهم الشرك بكل أنواعه.
- أن يوفق الله سبحانه ذريته إلى شكر نعمة الوطن، وشكر نعمة الأمن، وشكر نعمة الرزق، بالأقوال والأفعال.

ثانيا- أن استعظام إبراهيم عليه السلام لهذه المطالب، ورغبته الصادقة في تحقيقها بتحويل مكة مما كانت عليه من جدب ووحشة وخوف إلى بلد آمنٍ عامرٍ بالناس والثمار كانا وراء تعبيره بالأساليب البيانية الآتية:-

- نداء المولى سبحانه وتعالى بوصف الربوبية، بغرض الاستعطاف وإظهار الضراعة وشدة الحاجة، والذي تكرر في الموضع الأول ثلاث مرات، وفي الموضع الثاني سبع مرات.
- حذف حرف النداء للإشعار بقربه من ربه، وشدة احتياجه إليه، وعظيم رجائه فيه.
- الأمر المقصود منه التضرع والتوسل، والذي شمل كل ما يراه ضروريا لتكون مكة المكرمة وطنا آمنا له ولذريته ولمن يسكنها أو يزورها، ولتكون كذلك مهوى أفئدة الناس، وواحة نفوسهم، ومستقر أبدانهم.
- التعليل لهذه الأوامر بجمل تؤكد مدى الحاجة إلى إجابة هذه المطالب، ومن ثم حشد فيها الخليل كثيرا من أساليب التوكيد وأدواته.
- خَتْمُ هذه الأدعية بجمل وأساليب تقرر قدرة الله تعالى على تحقيق مطالبه، على الرغم من صعوبتها من وجهة نظره، كالطباق الدال على إحاطة الله تعالى واطّلاعه على كل ما يحتاجه الخليل مما ذكره في دعائه، وما لم يذكره.

ثالثا- أن هذه الأدعية تزخر بكثير من القيم التربوية والمعاني الإيمانية، التي يجب أن يعيشها الناس ويمتثلوها، وأن يقتدوا بجدهم الخليل في التحلي بها، والتي من بينها:-

- الحب الجارف للوطن، والحرص الشديد على أمنه واستقراره، ورغد العيش فيه.
- الاهتمام بجميع أفراد الأسرة، وتوفير المكان الآمن لإقامتهم، والذي يتوفر فيه جميع الأسباب المعينة على الطاعة والعبادة.
- الحرص على إيمان الأبناء والذرية، وألا يكون هم الآباء والأجداد توفيرَ المسكن والغذاء فقط، بل يجب أن يشمل الأمن العقدي كما يشمل الأمن المكاني.
- ألا يكُفَّ المرءُ عن الدعاء بهذين الأمنين له ولذريته وللناس أجمعين، لما لهما من أهمية في سعادة الإنسان في الدنيا، وفوزه ونجاته في الآخرة.
- أن من آداب الدعاء التواضع وإظهار الحاجة إلى الله تعالى، وإبراز الضعف بين يديه جل جلاله.
- أن شكر المنعم على نعمة الوطن، ونعمة الأمن، ونعمة الرزق بالأقوال والأفعال مما يجب أن ينتبه له الداعون، وأن يحرص على القيام به المؤمنون.

DOI: https://doi.org/10.33193/JALHSS.107.2024.1135
ISSN online: 2414 - 3383
ISSN print: 2616- 3810
مجلة الفنون والأدب وعلوم الإنسانيات والاجتماع
Journal of Arts, Literature, Humanities and Social Sciences
www.jalhss.com
Volume (107) June 2024
العدد (107) يونيو 2024

المصادر والمراجع

1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
2. الإيضاح لتلخيص المفتاح بشرح الشيخ عبدالمتعال الصعيدي- الطبعة السابعة عشرة- مكتبة الآداب- مصر.
3. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي- تحقيق/ صدقي محمد جميل - طبعة 1420هـ - دار الفكر - بيروت.
4. البرهان في علوم القرآن للزركشي- تحقيق/ مصطفي عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت.
5. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح- للشيخ عبدالمتعال الصعيدي- الطبعة السابعة عشرة- مكتبة الآداب- مصر.
6. البلاغة القرآنية في تفسير الكشاف د. محمد أبو موسى- الطبعة الثانية - مكتبة وهبة.
7. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور - الطبعة الأولى - مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان 1420هـ/2000م.
8. الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي- تحقيق/ فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل- الطبعة الأولى - 1413هـ/1993م - دار الكتب العلمية – بيروت - لبنان.
9. خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى- الطبعة السادسة 1425هـ/2004م - مكتبة وهبة.
10. دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى - الطبعة الثانية - مكتبة وهبة.
11. دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجاني- تحقيق العلامة/ محمود شاكر - مطبعة المدني ونشر الخانجي - القاهرة.
12. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
13. صحيح البخاري- ط دار الشعب - القاهرة- 1407هـ/1987م.
14. غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري – تحقيق/ زكريا عمران- مطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- 1416هـ/ 1996م.
15. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين سليمان بن عمر الجمل- دار إحياء الكتب العربية.
16. الكشاف عن حقائق غوامض التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- للزمخشري- تحقيق/ عبدالرازق غالب المهدي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
17. لسان العرب لابن منظور - الطبعة الأولى - دار صادر - بيروت.
18. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني- تحقيق/ د. محمد أحمد خلف – مكتبة الأنجلو.
19. مقاييس اللغة لأحمد بن فارس- تحقيق/ عبدالسلام هارون – طبعة 1423هـ/2002م - نشر اتحاد الكتاب العرب.
20. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي - تحقيق/ عبدالرازق غالب المهدي - دار الكتب العلمية - بيروت.